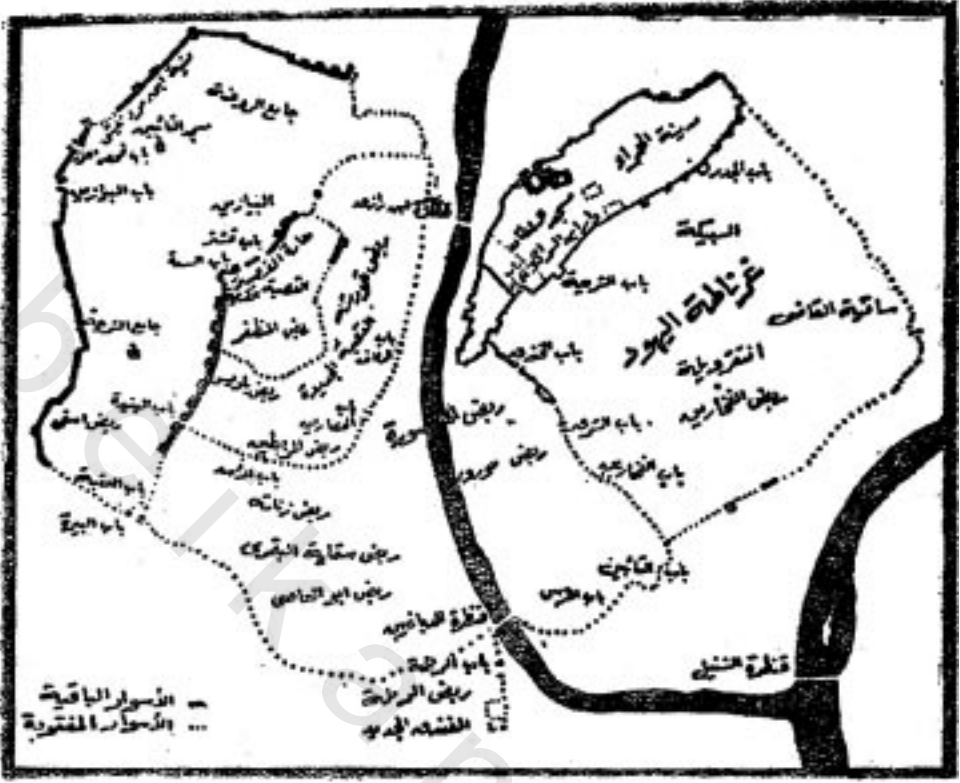


الفصل الثانى
غرناطة فى
الفتح العربى

obeikandi.com



غرناطة في العصر الاسلامي

لم تصل مدينة غرناطة إلى مكانتها التي شهت بها كعاصمة لدولة الأندلس إلا في أوائل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي)، وذلك حينما أدرك بنو زيري الصنهاجيون (وكانوا يحكمون في قلعة بني حماد، ثم في بجاية) أن سلطان غرناطة قد بدأ يهوى. فاتصلوا بوزير هشام الثاني، عبد الملك المظفر ابن المنصور بن أبي عامر يعرضون عليه خدماتهم، فكان الجواب مرضياً. وسرعان ما رحلوا مع جماعة من رجال قبيلتهم وأعوانهم تحت زعامة زاوي بن زيري. ويشاء حسن الطالع أن تصبح هذه الجماعة بعد قليل أهم

طوائف الجيش البربرى الذى أنشأه بنو عامر . ولما مات عبد الرحمن سنشول ،
ناصروا قضية زعيم جماعة البربر فى الأندلس - وهو سليمان المستعين ،
وعملوا على أن يتولى الخلافة . وقابل سليمان هذا الجميل بأن أقطع رؤساء
أتباعه الإقطاعات الكبيرة . وكان من أهمها إقطاع ناحية البيرة^(١) . وقد اشتمل
على الأراضى الغنية فى وادى نهر شنيل وكذلك على الهضاب الصخرية
المجاورة .

اتفق معظم المؤرخين وجغرافى الأندلسيين على جمال غرناطة وخصوبة
سهولها ، وكان بنو زيرى فى طليعة الذين أدركوا أهمية موقعها الخصب ، ولا
سيما أميرهم «عبد الله» . فلا عجب أن يتعاون الأندلسيين والبربر على تشييد
وإحياء مدينة غرناطة ، كل يبنى له مسكناً ، ثم آلت البيرة إلى الخراب
والإهمال .

لنرجع قليلاً إلى أيام الفتح الإسلامى الأول للأندلس . فقد ندب القائد
موسى بن نصير ابنه عبد العزيز لفتح البلاد التى لم تخضع بعد له فى شرق
الأندلس ، وليفانت . فلما كان عبد العزيز فى طريقه لإخضاع إمارة مرسية
(Orihuela) احتل مالقة وقطاع البيرة - غرناطة ، وفى أعقاب ذلك تولى أبو
الخطار الحسام بن الضرار إمارة القطاع (١٢٥هـ = ٧٤٣م) . وأقطعه إلى أجناد
دمشق السوريين . وكان شيوخ هؤلاء من المعاضدين للأمويين الذين عاونوا
الأمير عبد الرحمن الأول حينما نزل بأرض الأندلس . وقد شاهدت كورة
البيرة آنذاك النضال الدموى الذى وقع بين المولدين المخلصين للحكومة المركزية

(١) عرفت بهذا الاسم لأنها استمدته من المدينة القديمة البيرس . ثم احتلت جارتها غرناطة
أهمية المدينة القديمة ، وقد بدأت صاحبة يسكنها اليهود .

الأندلسية وبين العرب بزعامة سوار بن حمدون . وكان هذا فى أثناء حصار منافسيه قصر الحمراء ، وقد استطاع الخروج من قاعدته بحركة جريئة ، وأجبر الأندلسيين على الفرار عقب معركة عرفت باسم «واقعة المدينة» . ومن ثم لجأ الجنود المهزومون فى خدمة ابن حفصون ، الذى جمع شمل بعض القوات وقصد إلى البيرة ليستأنف النزال فى سهل شليل ، ودارت عدة معارك مظفرة وفاشلة حتى فقد الأمل فى الانتصار على أيام الخليفة عبد الرحمن الثالث .

استمرت المنطقة تعرف بالبيرة أعواماً كثيرة لأهميتها المتفوقة على غرناطة . وكانت تلك حتى القرن التاسع الميلادى لا تتجاوز قرية كبيرة ذات أسوار تقع على الشاطئ الأيمن لنهر درو عند التقائه بنهر شليل . وكان غالبية سكانها من اليهود ، وأقليتهم من المسلمين وليس فيها أحد من المسيحيين - ولذلك عرفت بغرناطة اليهود . وكان أمامها - وعلى نشز صخرى يشرف على الضفة الغربية درو ، قلعة قديمة سميت بالحمراء ، نظراً لتشابه لون التربة التى أحاطت بها . وهذه الحمراء هى التى أصبحت بعد قرون قاعدة ملك النصريين آخر سلالة الملوك العرب الذين حكموا الأندلس .

غرناطة تقف على قدميها:

يرجع مولد غرناطة الحقيقى إلى القرن الحادى عشر الميلادى حينما تصدعت وحدة الأندلس على أيام ملوك الطوائف والأمراء . ومن بين هؤلاء كان قائد من رجال المغرب اسمه زيرى بن مناد . كان قد أتى مع نفر كبير من قومه الصنهاجيين ثم وقعت الفتنة الكبرى أوائل القرن الحادى عشر . وقامت الحرب الأهلية بين قادة جيوش الخلافة وبعد أهوال لجأ زيرى وابن أخيه حبوس إلى غرناطة واتخذها عاصمة له ، فأعاد بناء أسوارها وأبراجها واتخذ

لنفسه ورجاله فيها قصوراً ومساجد^(١). وكانت غرناطة بنى زيرى تقوم فى السهل الفسيح الممتد بين تلى غرناطة. تل الحمراء شرقاً، وتل البياسين غرباً. ولا يزال جزء من أسوار هذه المدينة العتيقة باقياً وهو الجزء الذى يشتمل اليوم على باب البيرة. ثم باب المنية (ويعرف اليوم باب منايته) ثم بوابة الموازين. وحينما تقابل كنيسة السفادور فأنت فى مكان مسجد غرناطة القديم. كانت أسوار غرناطة فى تلك الأيام تصل إلى سفح الساكرومونتى (الجبل المقدس) وهو جزء من تل البياسين، ومن هناك كان السور ينحرف شرقاً ماراً ببيت عربى يعرف ببيت الجباس الذى تقوم فيه اليوم مدرسة الأبحاث العربية فى غرناطة. . وبعد سير السور قليلاً يتسلق السور سفح تلك الحمراء حتى يصل إلى الهضبة التى تقوم عليها قصور الحمراء اليوم. وعلى هذه الهضبة وضع بنو زيرى أساس تحصينات الحمراء التى ستصل إلى ذروتها بفضل بنى زيرى. . وخلف هذه الأسوار قامت غرناطة العتيقة التى يرجع الفضل فى إنشائها إلى اثنين من أمراء بنى زيرى الصنهاجيين، هما حبوس بن ماكن (١٠١٩ - ١٠٣٨)، وباديس بن حبوس (١٠٣٨ - ١٠٧٣). ولا تزال أطلال قصور بنى زيرى قائمة إلى اليوم بالقرب من دار الجباس حيث تقوم بقايا بعض دور عربية وبقايا الحمام الصغير (El Banuelo).

كانت أهم أحداث غرناطة أثناء حكم بنى زيرى: حصار الخليفة المرتضى لها لطرده الزيريين منها بيد أنه منى بهزيمة منكرة واضطر إلى الفرار والاتجاء إلى قادش. وبعد أن تحقق فوز الزيريين غير المنتظر، دعمت الأسرة أحوالها، ولا سيما على أيام إمارتى حبوس وباديس بمؤازرة الوزيرين اليهوديين صمويل وابنه يوسف بن نجر الله.

(١) حسين مؤنس: غرناطة. مجلة العربى، العدد ٨٩، أبريل ١٩٦٦، ص ٧٥ - ٩٨.

وكان الأمير باديس قد بلغ من العمر عتياً، وزادته الأحداث تجارباً وخبرة، وكان يحس دوماً أن هناك ما يهدد أمن إمارته، فبذل الكثير من الأموال لدعم أسوار قصبة غرناطة لتكون فى مأمن من هجوم أعدائه حينما يتربصون الفرص: أو رعاياه المكبوتين عندما يرفعون راية العصيان ضد أميرهم. والشئ الذى كان يجول بخاطره، أن يتمتع داخل القصبة ويدافع رجاله عنها حتى يستطيع الفرار ناجياً بنفسه إلى أفريقيا.

غرناطة المرابطين:

وهنا حادث آخر يتصل بغرناطة على أيام آخر حكام الزييين: عبد الله بن بلكين حفيد باديس الذى بدأ حكمه وهو فى سن الطفولة. وما كاد يصل إلى سن الشباب حتى بدأت الدسائس والمؤامرات يدبرها رجاله ضده، بينما تتوالى الحروب بينه وبين منافسيه من الأمراء المسلمين المجاورين، أو من الملوك النصرارى. ولم ينج فى نهاية تلك الأخطار المشتعلة فى داخل ملكه وخارجها من عداوة المرابطين الذين قدموا إلى الأندلس بدعوة من بعض أمراء الطوائف. فأخذ يشيد الحصون ويدعم الأبراج، ويقوى الأسوار المتصلة بـقصبة غرناطة لى يرد المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين. ولكن ما كاد هؤلاء يصلون إلى خارج أسوار المدينة حتى نصحه الوزراء وأمه أن يقلع عن المقاومة فاستسلم لرأيهم واتضح جبهه حينما خرج من القصبة عن رأس رجاله واستقبل يوسف بن تاشفين، وأمر بفتح أبواب غرناطة، ثم قدم له الكنوز التى احتوتها القصبة هدية للأمير الفاتح! وكان ذلك فى عام ٤٨٣هـ - ١٠٩٠م، وأخذ عبد الله أسيراً إلى أغمات فى المغرب، فانهى ملك بنى زيرى من غرناطة وأصبحت المدينة منذ ذلك الوقت مع إقليمها تكون جزءاً

هاماً من أملاك المرابطين فى الأندلس شأنها شأن غيرها من مناطق إسبانيا الجنوبية وبقيت المدينة تحت ولايتهم حتى ٥٥١هـ - ١١٦٦م حينما آلت إلى حكم الموحدين. وفى ظل المرابطين كبرت غرناطة وازداد عمرانها حتى أصبحت فى أيامهم والموحدين من بعدهم حتى القرن الثالث عشر الميلادى من أهم وأكبر مدن الأندلس. فاتخذها الأمير أبو الطاهر تميم بن يوسف والى البلاد زمن شقيقه الأمير على بن يوسف مقراً له.

كان أول حكام غرناطة المرابطين أبا محمد عبد العزيز وخلفه الأمير يحيى بن وسينو من أقرباء يوسف بن تاشفين وجاء من بعده أبو الحسن بن الحجيج الذى هاجمه ألفونسو السادس فى مدينا شيللى وانتصر عليه واستشهد أبو الحسن فى المعركة وتولى الحكم بعد شقيقه أبو الحسن وهو محمد بن الحجيج الذى جاء على رأس قوات غرناطة لنجدة والى أشبيلية وكانت مقاطعته قد هدهدا مرة أخرى ألفونسو السادس، وعلى مقربة من أشبيلية عند المقاطع أجبر على التقهقر بعد أن تحمل خسائر فادحة. وفى العام التالى يقابلنا أبو بكر بن يوسف فى تولية زعامة المرابطين فلم يساعد أهل غرناطة وقبض عليه وأرسل إلى مراکش. وفى أثر تلك المقاومة الفاشلة جاء على إلى الأندلس وبرفقته شقيقه الأكبر أبو الطاهر تميم لينقضيا على أثر للمقاومة الفاشلة، وكان قد عين شقيقه تميم بن يوسف والياً على غرناطة. وفى هذه الفترة لعبت غرناطة دوراً هاماً خلال الحملة التى بدأها ألفونسو الأول المحارب ملك أراجون ضد أملاك المسلمين فى عام ١١٢٥م، واستمرت خمسة عشر شهراً تمكن خلالها بمعاونة نزلاء غرناطة من المستعمرين^(١) أن ينشر الذعر

(١) د. محمد توفيق بلبع: غرناطة وقصر الحمراء. المجلة التاريخية المصرية، مجلد ١٦ عام

والخراب فى أملاك المسلمين، كما تكن من مهاجمة غرناطة وضرب الحصار عليها وكاد يقتحمها لولا قوة تحصيناتها وشجاعة المدافعين عنها والمدد الذى وصلهم من المغرب، مما اضطر المهاجمين إلى رفع الحصار ومتابعة الحملة فى المناطق الأخرى الجنوبية، حتى وصلت جيوشهم إلى مدينة أرينسول جنوبى غرناطة وعندها نشبت معركة كبيرة بين قوات ألفونسو وجيوش الأمير تيمم التى كانت تتعقبه^(١) إلا أن ملك أراجون انتزع النصر فى النهاية من أعدائه الذين الهتهم الغنائم بعد تفوقهم فى الضربة الأولى (مارس سنة ١١٢٦). وفى أعقاب تلك الهزيمة أعفى تيمم من منصبه فى غرناطة وخلفه أبو عمر عنا له أكبر أحفاد يوسف بن تاشفين وكان والياً على فاس.

ولم يستقر أبو عمر طويلاً فى عمله فقد أقاله على فى مايو ١١٢٨م وأجبر على العودة إلى مراكش. وكان والى غرناطة الجديد أبا حفص عمر بن على بن يوسف الذى خلع بعد أربعة أشهر... وكان آخر ولاية المرابطين على غرناطة على أبى بكر بن على ابن شقيقة يوسف بن تاشفين.

استمر اتساع العمران فى غرناطة فى زمن الموحدين، فقد بلغت مساحة المدينة المسورة فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر للميلاد ما يقرب من خمسة وسبعين هكتاراً، وكانت تضم أكثر من أربعة آلاف وأربعمائة دار، يقيم فيها أكثر من ستة وعشرين ألفاً وأربعمائة نسمة^(٢). ثم جاءت الأيام التى اشتد فيها الهجوم المسيحى على الموحدين فلم يستطيعوا عمل شىء... والأثر الوحيد الباقى فى غرناطة من عصرهم، هو قصر صغير فى أقصى غرب

(١) المستعربون هم الإسبان المسيحيون الذين اعتنقوا الإسلام وتكلموا اللغة العربية.

(٢) Torres Balbas: A; Andalus, Vol, XXI, fasc. I, pp. r39 - r40

المدينة يسمونه اليوم قصر نهر شنيل واسمه الأصلي قصر السيد إسحق بن يوسف بن عبد المؤمن^(١) الذى ولاه الخليفة الموحدى المستنصر حكومة غرناطة سنة ١٢١٨/١٩م. فشرع فى بناء هذا القصر ثم شيد فى مواجهته رباطاً للعبادة، وقد حول هذا الرباط إلى دير نصرانى باسم دير ومصلى القديس سباستيان: وقد استعمل القصر بعد ذلك دار ضيافة.

غرناطة بنى الأحمر (بنى نصر):

لا شك أن عظمة غرناطة وازدهارها من الناحية الفنية ترجع إلى بنى الأحمر، فمع قدوم هذه الأسرة ومؤسسها محمد بن الأحمر، استقر فيها حكمهم من عام ٦٣٥هـ - ١٢٣٨م حتى سقطت المدينة العظيمة فى قبضة الملكين الكاثوليكين فرناندو وإيزابلا فى عام ٨٩٧هـ - ١٤٩٢م وكانت فى خلال تلك المدة قاعدة آخر حكومة إسلامية فى إسبانيا. فإذا كانت قرطبة قد نالت قصب السبق كعاصمة للأمويين بالأندلس لمدة تزيد على القرنين ونصف القرن، وتبعتها أشبيلية لفترة أخرى تجاوزت المائة والستين عاما كحاضرة للبلاد زمن كل من المرابطين والموحدين فإن مدينة غرناطة استمرت من بعدها عاصمة لمملكة بنى نصر لفترة تتعدى المائتين والستين سنة^(٢).

أصبحت غرناطة من سنة ١٢٣٨ معقل الإسلام فى شبه الجزيرة فخف الناس إليها ألوفاً من المدن التى استولى عليها المسيحيون أو التى كانت مهددة بالسقوط. وفى أعوام قليلة عمر الناس كل تلك البياسين وانتشروا على السطح

(١) د. حسين مؤنس: غرناطة، مجلة العربى.

(٢) د. محمد توفيق بلع: المرجع السابق ذكره، ص ٧٥.

الشرقى لهذا التل الذى كان يعرف بمدرج السيكة وفى خلال خمسين سنة
تضاعفت أربع مرات.

فماذا فعل بنو نصر فى غرناطة؟ لنبدأ بأن نتعرف أولاً على مؤسس
مملكة غرناطة. . فهو محمد بن يوسف بن نصر المعروف بابن الأحمر. كان
قوى الشخصية عالى الهمة، له مقدرة فائقة على مجابهة الأحداث والإفادة
من الأخطار. دخل أسلافه الأندلس مع جيوش الفتح العربى واستقر مقامهم
عند حصن أرجونة إلى الشمال من غرناطة ثم أخذت أسرة ابن نصر منذ ذلك
الحين تتكاثر وتزداد وتقوى حتى آلت زعامتها إلى محمد هذا الذى عرف
بالشيخ.

حينما تدهور نفوذ الموحيدين فى الأندلس فى بداية القرن الثالث عشر
الميلادى ولا سيما بعد اقتصار ألفونسو الثامن ملك قشتالة وحلفائه من ملوك
إسبانيا المسحيين على محمد الناصر الخليفة الموحدى فى معركة العقاب سنة
٦٠٩هـ - يوليو ١٢١٢م^(١) وجد عدد كبير من زعماء الأندلس فرصة لشق
عصا الطاعة على الموحدين، فثاروا فى مناطق شتى بالبلاد وحاولوا السيطرة
على ما تحت أيديهم من أملاك الموحدين والاستقلال بها، وكان من بين هؤلاء
محمد بن يوسف بن نصر، فنصبه أهل أرجونة مسقط رأسه فى سنة ١٢٣٢م
واليًا عليهم، ثم دخلت فى حوزته فى السنة التالية مدينة جيان. ولما قتل أبو
عبد الله محمد بن يوسف بن هود فى سنة ١٢٣٨م الذى ثار بدوره على
الموحدين فى مدينة مرسية واتخذها عاصمة لمملكته فى شرق الأندلس. خشى
أهل غرناطة بعد مقتل أميرهم ابن هود على مدينتهم من الجيوش النصرانية

(١) A. Huici Miranda: Las Grandes Batallas de la reconquista

التي كانت تضغط بقوة على أملاك المسلمين للاستيلاء عليها، فاتصلوا بابن الأحمر أثناء وجوده في جيان وبعثوا إليه ببيعتهم والدخول في طاعته: فاستجاب لرغبتهم وانتقل إلى غرناطة واتخذها منذ ذلك الحين مقاماً له وحاضرة لمملكته الجديدة^(١).

وما وافت سنة ١٢٣٩م حتى استقر رأى محمد بن نصر على إنشاء حصن يحتمى به. وبعد أن استكشف بنفسه المنطقة المحيطة بالمدينة، استقر في نهاية الأمر في منطقة السبيكة في الجانب الشمالى الشرقى من مدينة غرناطة حيث كانت توجد أطلال إحدى القلاع القديمة. ووضع ابن الأحمر في هذا الموضع المرتفع أساس حصنه الجديد «قصة الحمراء» ثم أمر بإقامة البناء والعمل على إتمامه بسرعة، وفي الوقت نفسه عمل على تدبير الماء اللازم لقصره، فأمر بعمل سد على نهر حدره (Darro) لتؤخذ منه المياه وترتفع إلى الحصن بواسطة سواقي.

كان الحاكم الجديد يوسع رقعة مملكته على حساب المدن والإمارات المجاورة. فضم مدينتي مالقة والمرية وأحوازيهما وشملت بعد ذلك مدينة لورقة شرقاً. وواصل محمد بن يوسف طوال فترة حكمه التي امتدت إلى ما يقرب من ست وثلاثين سنة بعد دخول غرناطة (١٢٣٨ - ١٢٧٣م)، يقاتل لتحقيق أهدافه في تأسيس دولة قوية عظيمة، مما أرغمه على خوض معارك كثيرة وخاصة ضد بنى مرين أصحاب المغرب للاستيلاء على أملاكهم في المناطق الجنوبية من إسبانيا فانتصر عليهم في معارك كثيرة وبذلك دعم مملكته وذاعت شهرته فيما جاوره من الأقاليم حتى وافاها الأجل في عام ١٢٧٣م،

(١) د. محمد توفيق بلبع: المرجع السابق ذكره، ص ٧٧.

فخلفه ابنه محمد الثانى الفيه (١٢٧٣ - ١٣٠٢م)، فاستكمل بناء القسبة (القلعة)، وأتم جانباً كبيراً من أسوار الحمراء.

تولى أمر المملكة من بعده ابنه أبى عبد الله محمد الثالث (١٣٠٢ - ١٣٠٨م) وكان من أعظم أهل بيته صيتاً وهمة: بيد أنه كان ظالماً وقاسياً فتآمر عليه أهل غرناطة وأقصوه عن الحكم ونصبوا شقيقه أبى الجيوش نصر فدبرت له مؤامرة أودت بحياته حيث مات غريقاً عام ١٣١٠م بعد سنتين من خلعه. ويرجع الفضل إليه فى بناء المسجد الجامع بالحمراء وتزيينه وتجميله، وقد ظل هذا المسجد قائماً حتى النصف الثانى من القرن السادس عشر حينما أزيل فى زمن الإمبراطور فيليب الثانى ابن شارلمان، وبنى مكانه كنيسة سانت ماريا الحالية، كما شيد الأمير محمد الثالث حماماً بإزاء المسجد وجعله وقفاً عليه، وقد تهدم هذا الحمام وظلت أطلاله فى مكانه أثراً باقياً تشهد على وجوده^(١).

تعاقب على حكم غرناطة بعد هؤلاء الثلاثة الأول ثمانية عشر سلطاناً (راجع الملحق) ساهم معظمهم فى إضافة وتجميل مبانى الحمراء وبساتينها وخمائلها وقاعاتها، فأبدعوا فى زخرفها وزينتها، حتى أصبحت صورة صادقة لألوان الجمال وعنواناً للنعم الموفورة التى عاش فيها ملوك غرناطة.

أهم ما نسجله عن امتداد المدينة ما ذكره العلامة حسين مؤنس فى بحثه الممتع الذى نقل منه:

كان السور الذى بنوه (بنو نصر) يحيط بتلى البياسين والحمراء ويسير مع السور الخارجى القديم نحو الجنوب ثم ينحرف شرقاً ويسير محاذياً للمجرى

(١) د. محمد توفيق بلبع: المرجع السابق ذكره، ص ٨٠.

القديم لنهر حدارة ماراً بميدان الباب الملكي وينتهى عند مجرى نهر شنيل فى الشرق. كان هذا السور الضخم مدعماً بأبراج صغيرة تعرف بالبرانيات، ولا تزال بعض بقاياها قائمة. وكان الشارع الرئيسى للبلد هو نفس الشارع الرئيسى الحالى المسمى باسم الملكين الكاثوليين، وكانت الأسواق تقع إلى غرب الشارع: فيما يعرف اليوم بالقيسارية وحول المسجد الجامع الذى كان يقوم مكان الكاتدرائية اليوم، وكانت الأسواق تمتد إلى مبانى الجامعة الحالية. هنا أيضاً كانت الأحياء الشعبية وكانت تمتد حتى تل البياسين وتشمله.

والجانب الشرقى من غرناطة اشتمل على أحياء الأمراء والأغنياء وكانوا يسكنون دوراً فسيحة تحيط بها الحدائق والبساتين. وقد تحدث كثيراً لسان الدين ابن الخطيب وهو الطبيب والفيلسوف والكاتب والشاعر - فى كتابه «الإحاطة» عن العظمة والتقدم اللذين بلغتهما غرناطة فأعطانا صورة لعصره انطبعت مظاهرها على حياة الناس وطرق معيشتهم فى جميع النواحي السياسية والحربية والدينية والثقافية والاجتماعية، وكان الرخاء والثراء والترف محور هذه الحياة التى بلغت من البذخ حداً بعيداً.

نهاية غرناطة الإسلامية:

وبالرغم من كل هذه النعمة والغنى والقوة، فإن غرناطة لم تستمر طويلاً بنعم الحياة الهادئة لأن حرب الاسترداد الإسبانية التى تزعمتها مملكة قشتالة وأراجون أخذت تشتد على أطراف مملكة غرناطة، مما أجبر جميع مسلمى الأندلس إلى مغادرة مدنهم واللجوء إلى أحواز العاصمة وفى نفس الوقت تنازع على النفوذ والسلطان أفراد البيت المالك، مما دفع بعضهم إلى طلب العون والمساندة من الممالك المسيحية لتحقيق أطماعهم الشخصية. لذلك

اضطربت أحوال البلاد وانحسرت حدود المملكة الواسعة فى آخر الأمر داخل أسوار عاصمتها، فضربت جيوش الملكيين المسيحيين عليها حصاراً محكماً فى جمادى الآخرة سنة ٨٩٦هـ - أبريل سنة ١٤٩١م، وكلما اشتد الحصار زادت نار الفتنة اشتعالاً: ووجد اليأس طريقه إلى قلوب الغرناطين نتيجة للجوع والغلاء. وفى النهاية تأمر السلطان أبو عبد الله محمد بن على بنفسه على تسليم المدينة وقلعتها الحصينة، فى مقابل شروط معينة أهمها: تأمين السكان وأموالهم ومتاعهم - إطلاق جميع الأسرى من أهل غرناطة المسلمين - ترك الحرية للمسلمين لمزاولة شعائهم الدينية فى المساجد - عدم التعرض لهم إذا رغبوا فى العبور إلى المغرب - إلى غير ذلك من الشروط.

أرسلت هذه الشروط إلى ملك قشتالة فوافق عليها وطلب تقديم خمسمائة من كبار رجال المسلمين كرهائن، فأجيب إلى طلبه. فتقدمت قوة مسيحية إلى قصر الحمراء وتسلمت إلى داخله دون مقاومة. فتلقى السلطان أبو عبد الله محمد (الحادى عشر) قائدها فى برج قماش وسلمه مفتاح القلعة فقط دون مفتاح المدينة، فعاد القائد إلى معسكر سيده الذى كان يبعد قرابة اثنى عشر كيلو متراً عن أسوار غرناطة وصحبه والملكة إيزابيلا إلى الحمراء فدخلها فرناندوا وإيزابيلا مع جيوشهما فى ٢ ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ - ٢ يناير ١٤٩٢م، فأقيمت مراسم احتفال تسليم المدينة ورفع العلم المسيحى والصليب بعد أن أنزل العلم الغرناطى فوق برج الحراسة الذى يتوسط مبنى الفسبة القديمة باعتباره أكبر وأعلى أبراج الحمراء^(١).

(١) د. محمد توفيق بلع: المرجع السابق ذكره، ص ٨٠.

هكذا انتهى آخر مظهر من مظاهر السيادة الإسلامية بالأندلس بعد أن ظلت ما يقرب من ثمانية قرون خاضعة للمسلمين الذين سيطروا خلالها سجالاً حافلاً بالمجد والرفعة فى جميع ألوان الحياة، مما يعد فخاراً للإسبانيين.

لقد أحب عرب الأندلس مدينة غرناطة وتفاخروا كثيراً بها، ويذكر المقرئ فى تاريخه «نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب» - أن أحدهم قابل شنيل «مهر المدينة»، بألف نيل، فيقال:
وما لمصر تفخر بنيلها

وألف منه فى شنيلها

وتجدر الإشارة هنا أن حرف «ش» بالذات يدل على العدد ١٠٠٠ فى لهجة عرب المغرب!.

وبعد سبع سنوات نقض الملكان شروط التسليم، وأجبروا المسلمين الذين ظلوا فى مدينتهم على اعتناق النصرانية مما دفع أهل البيازين للثورة على حكامهم، ولكنهم أخذوا بقسوة شأنهم فى ذلك شأن جميع المسلمين، مما اضطرهم إلى الفرار للمغرب حيث نزلوا فاس وغيرها من المدن حتى خلت الأندلس من المسلمين! وفى الوقت نفسه ارتد المستعربون عن الإسلام وعادوا إلى المسيحية وعندما غادر غرناطة أبو عبد الله من باب القدر إلى منفاه، وأفل مجد أسرة بنى نصر أغلق الباب بأمر من الملك الإسبانى الكاثولىكى وملكته، بعد أن أمرا أن يبقى الباب مغلقاً دائماً.

ومع ذلك فإن أثر حضارة العرب والإسلام ما زالت باقية فى جميع أنحاء إسبانيا تشهد بفضل هذا الدين السمع وحضارته الخالدة على بقعة فسيحة فى غرب أوروبا.